الشيخ محمد صنقور

المقدمة الأولى: إننا نحن الشيعة الإمامية لا نحتاج للبحث عن مشروعيَّة موقف الإمام الحسن (ع)، بمعنى أنَّه لا حاجة عندنا للبحث عن الأدلَّة التفصيلية المصحِّحة لموقف الإمام الحسن (ع) وصلحه ومهادنته لمعاوية، كما لا ضرورة عندنا للبحث عن الأدلَّة التفصيلية المقتضية لصحَّة موقف الحسين (ع) من السلطة، ومواجهته ومقارعته للسلطة الأمويَّة، نحن لا نحتاج إلى كلِّ ذلك بعد أنْ كنا نعتقدُ بعصمة الأئمة (ع)، وأنَّ كلَّ موقفٍ يتَّخذونه -حتى وإن خفي علينا منشأه- فهو عين الصواب، وكلُّ موقف يتَّخذونه فهو الموقف الذي ينبغي أنْ يُتخذ، ولا يطرأ الخطأ والاشتباه عليهم، فهم معصومون مُنزَّهون عن الغفلة، ومُنزَّهون عن الخطأ في تقدير الأمور، عصَمهم الله -عزَّ وجل-؛ لأنَّه قد جعل منهم قادةً لعباده، وأدلَّاء على أحكامه وشريعته، فكلُّ ما يتَّخذونه من مواقف تكون نابعةً عن معرفةٍ تامَّة بالحكم الإلهي وموضوعاته، هذه هي المقدِّمة الأولى.

إذن إذا كنا نتحدث في بعض الأحيان عن مُبرِّرات الخيار الذي اتَّخذه الإمام الحسن (ع)، أو الخيار الذي اتَّخذه الإمام الحسين (ع) فإنَّما نتحدَّث عن ذلك لأجل أن نُثبت للآخرين صوابيَّة موقفهم، وإلَّا فنحن نعتقد يقيناً بأنَّ مواقفهم (ع) مطابقة لمقتضيات الأمر الإلهيّ، ومَن يعتقد غير ذلك فقد خرج عن مذهب الإمامية.

المقدِّمة الثانية: هي إنَّ اتخاذ طريق الصلح والمهادنة لا يكون بالضرورة أمراً سلبياً، كما أنَّ اتخاذ طريق الحرب والمواجهة لا يكون بالضرورة أمراً إيجابياً أو سلبياً. فالصلحُ له ثمرات وله فوائد إذا ما كان هو المناسب لمقتضيات الظروف، كما إنَّ الثورة كذلك تكون لها ثمرات إذا ما كانت مناسبةً لمقتضيات الظروف. لذلك اتَّخذ رسولُ الله (ص) خيار الصلح والمهادنة، كما اتَّخذ خيار المقارعة والمواجهة، فقد كان رسول الله (ص) ملتزماً بخيار المهادنة والمداراة طيلة عقدٍ من الزمن أو يزيد حينما كان في مكة، فكان يُسايس قريشاً، ويُداريهم، ويحرصُ على أنْ لا يدخل في مواجهةٍ معهم، رغم قسوتهم وبطشهم، ورغم ما لاقاه هو والمؤمنون من ويلاتٍ وعذاب واضطهاد، فكان يُصرُّ على خيار المهادنة، وكان يدعو الى الله عز وجل بالكلمة والموقف دون أنْ يشهر في وجه أحدهم سيفاً؛ ذلك لأنَّ خيار المهادنة آنذاك هو الخيار الأكثر جدوى والأكثر نفعاً.

ثم إنَّ رسول الله (ص) وبعد أكثر من عقدٍ من الزمن، وبعد أنْ هاجر الى المدينة المنورة لم يُبادر كذلك إلى خيار المقارعة والمواجهة لمشركي قريش أو اليهود الذين كانوا يعيشون في أطراف المدينة المنورة، بل اتَّخذ معهم نفس الخيار، واعتمده طريقاً ووسيلةً لنشر الدعوة في ربوع الجزيرة العربية، ثم لمَّاتهيأت الأسباب، وبعد أنْ قويت شوكةُ الرسول (ص)، واقتضت الظروف أن يكون خيار الحرب والمقارعة هو الخيار الأنجع والأسلم والأكثر فائدةً، نزل القرآن الكريم ليقول للنبي (ص): ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾(1) عندئذٍ بدأ رسول الله (ص) في انتهاج خيارٍ آخر هو خيار الحرب والمواجهة، إلَّا أنه لم يكن الخيار الأخير، ولم يُلغِ هذا الخيار خيارَ المهادنة، ففي الوقت الذي كان يقارع رسول الله (ص) قريشاً كان يعقد صلحاً ومهادنة مع يهود يثرب -مع بني

قينقاع، وخيبر، وبني النضير-، وكان قد عقد معهم صلحاً ومهادنة بشروط اشترطها لهم وعليهم. وكذلك وبعد أن كثُرت الحروب والمواجهات والسِّجال بينه وبين قريش، اقتضت الظروف أنْ يعقد معهم صُلحاً، فلم يتلكَّأ، ولم يتوقف بل اتَّخذ هذا الطريق بكلِّ جرأة كما كان قد اتَّخذ طريق المقارعة والمواجهة بكلِّ جرأة، فصالحهم صُلح الحديبيَّة على أنْ لا يُقاتلهم عشر سنين، والتزم بالشروط، فلم يدخل معهم في مواجهة بعدئذٍ إلَّا بعد أنْ نقضوا الشروط التي أُبرمت بينهم وبينه. وهكذا اليهود فإنَّهم بعد أن نقضوا العهود -كما هو ديدنهم- حاصرهم، وحاربهم، وأخرجهم، وقتل منهم مَن قتل، ومنهم من نفاه من المدينة المنورة، هذه هي سيرة الرسول (ص) فيما يتَّصل بهذا الشأن. إذن فليس خيار السلم والموادعة والمهادنة خياراً سلبياً دائماً.

وكذلك فإنَّ عليَّ ابن أبي طالب (ع) كان قد اتَّخذ نفس الخيار أيضا، فثلاثون سنة كان عليُّ ابن أبي طالب (ع) ملتزماً بهذا الخيار -رغم مرارته، ورغم قساوته، ورغم شدَّة وطئته على قلبه ومشاعره-، وقد صرَّح بذلك، وعبَّر عن مرارة هذا الخيار وسلامته في ذات الوقت، فهو خيار -رغم قساوته على النفس- كانت تقتضيه الظروف، ويقتضيه الأمر الإلهيّ، يقول (ع): "فرأيتُ أنَّ الصَّبر على هاتا أحجى فصبرتُ وفي العين قذى. وفي الحلق شجا أرى تراثي نهبا"(2)، ثم إنَّه في الوقت الذي اتَّخذ فيه هذا الخيار فإنَّه عندما اقتضت الظروف أنْ يُباشر دور الإصلاح والتقويم للأمة، ومحاولة العودة بها الى مسارها الصحيح الذي أراده الله عزَّ وجل، وأراده رسولُه (ص) لها، قام وبكلِّ حزمٍ وقوَّةٍ، وبكلِّ رباطة جأش، قائلاً: "ألا إنَّ كلَّ قطيعةٍ أقطعها فلان، وكلَّ مالٍ أعطاه من مال الله، فهو مردود في بيت المال، فإنَّ الحق القديم لا يُبطله شيء... فإنَّ في العدل سعة، ومَن ضاق عنه الحق فالجور عليه أضيق"(3)، وكان (عليه أفضل الصلاة والسلام) يقول فيما يقول في خطبته الشقشقية: "لولا حضورُ الحاضر، وقيامُ الحجَّة بوجود الناصر، وما أخذ اللهُ على العلماء ألَّا يُقارُّوا على كِظَّةِ ظالمٍ، ولا سغَبِ مظلوم، لألقيتُ حبلها على غاربها"(4).

إذن لما أنْ اقتضت الظروف -وهي قوله (ع): "حضور الحاضر وقيام الحجَّة لوجود الناصر"- عندئذ قام الإمامُ عليُّ ابن أبي طالب (ع) لإصلاح ما اعوجَّ من مسار هذه الأمة. إذن فكلا الخيارين قد اتَّخذهما عليٌّ (ع)، كما أنَّ الخيارين كان قد اتخذهما رسول الله (ص) من قبل؛ من أجل أنْ يُعزِّز ويؤكِّد ويُجذِّر كلمة الله عز وجل في الأرض.

وهكذا فإنَّ الحسين (ع) كان قد اتَّخذ كلا الخيارين أيضاً، فخيار الموادعة والمهادنة كان قد اتَّخذه الحسين(ع) كما كان قد اتَّخذه الحسن (ع)، إذ لم يكن خيار الصلح والموادعة لمعاوية خياراً خاصاً بأبي محمدٍ الحسن (ع)، بل كان خياراً معتمَداً من قبل الإمامين الحسن والحسين (ع) فكان خياراً مشتركاً، ولم يكن الحسن (ع) وحده هو الذي اختصَّ بخيار السلم والموادعة والصلح، فالحسين(ع) كان معه أيضاً، لذلك وبعد أنْ رحل أبو محمدٍ الحسن (ع) إلى الله عزَّ وجل التزم أبو عبدالله الحسين (ع) بهذا الخيار، وكان يأبى أن يخرج على معاوية؛ لأنَّه قد كان بينه وبين معاوية صُلحاً وعقداً، وكانت كتب الكوفة تأتيه متوالية تُحفِّزه على الخروج على معاوية، وكان يأبى ويقول: "إن بيننا وبين هذا الرجل عقداً"(5)، ثم كان يأمر شيعته أن يكونوا أحلاس بيوتهم حتى يهلك هذا الطاغية(6). إذن فالحسينُ

الشهيد قد اتَّخذ خيار المهادنة والصُّلح، وكلُّ ذلك يؤكِّد ما ذكرناه من أنَّ اتِّخاذ الحسين(ع) أيام يزيد لخيار الحرب والمقارعة والمواجهة لا يُعبِّر عن مِزاجٍ يختلف عن المزاج الذي كان ينطوي عليه قلبُ أبي محمدٍ الحسن (ع)، فلم يكونا ينطلقان عن مزاجين، ولا عن تشهٍ وهوىً وحبٍ للذات، بل كانت كلُّ مواقفهما كما هو الحال في سائر الأئمة (ع) تنشأ عن حرصٍ على الدين وقيَمِه، وعن حرصٍ على الشريعة وأحكامها ومعالمها وتعاليمها وهويتها وكلِّ مقدَّرات هذه الأمة، كان ذلك هو هدفهم، وكان ذلك هو منطلقهم، هذه هي المقدِّمة الثانية.

المقدمة الثالثة: هي إنَّ الإمام الحسن (ع) هو أيضاً كان قد اتَّخذ خيار المواجهة، فمنذُ أنْ بايعه المسلمون بعد استشهاد الإمام علي (ع) كان أوَّل قرارٍ قد اتَّخذه هو تعبئة جيشٍ قوامه مائة ألف مقاتل، ثم أمرهم -بعد أن عبَّئهم وحشَّدهم وحفَّزهم على المواجهة والمقارعة- بالمسير الى النُخيلة، وهي الجبهة التي يُراد لها أنْ تكون في مواجهة جيش الشام الذي يقودُه معاوية، هذا هو القرار الأول، وكان قرار حرب، وقرار مواجهة، إلَّا أنَّ الظروف حالت دون أنْ يستمرَّ في هذا الخيار.

ثم إنَّ الإمام الحسن (ع) قد خاض حروباً ثلاثة، قارع فيها الأبطال والأقران والفرسان، وإنَّ مَن يقف على يوميَّات صفين، ويقف على يوميَّات الجمل، والنهروان، يعرف أنَّ الإمام الحسن (ع) كان رجلَ حربٍ كما كان رجل سلم، اقرؤوا التاريخ وستجدون ذلك واضحاً، هذه هي المقدِّمة الثالثة، وبقيَ الكلام في المقدمة الرابعة.

المقدمة الرابعة: وهي التأكيد على أنَّ الصلح ليس خياراً سلبيَّاً دائماً، بل قد يكون كذلك، وقد يكون خيار الصلح هو الخيار الأنجع؛ نظراً لكونه المناسب لمقتضيات الظروف.

فالصلح قد تترتَّب عليه آثار وثمرات كثيرة قد لا يُدركها إلَّا صاحب الأفق الرحب، الذي ينظر الى ما وراء الأمور. والصلح قد يُساهم في تقوية شوكة المؤمنين، كما قد ساهمت المهادنة والمداراة أيام رسول الله (ص) في تقوية شوكة المؤمنين، فلو اعتمد الرسول (ص) من أول يومٍ خيارَ المقارعة والمواجهة لكان ذلك منتجاً لاندثار رسالته، في مهدها وعلى العكس كان رسول الله (ص) يحرجهم من خلال مواقفه وحسن خلقه، وكان كلَّما اشتدَّت عليه الوطئة قال: "اللهم اهدِ قومي فإنَّهم لا يعلمون"(7)، ولذلك قويت شوكتُه وامتدَّ الإسلام، وأخذ يتجذَّر في الأرض ويتسع، إلى أنْ بلغ حدَّاً يصعب معه استئصال هذا الخط. إذن فالصلح والمهادنة قد يُساهم إلى حدٍّ كبير في تقوية شوكة المؤمنين، وعندئذٍ تكون ثمَّة فرصة لتعبئة القوى، وتكون ثمَّة فرصة للبحث عن وسائل القوَّة، ولسدِّ الثغرات، ومواطن الضعف، ولولا الصلح لما أمكن ذلك؛ إذ أنَّ العدو لن يترك لك فرصةً إذا كنتَ في خط المواجهةِ معه وأنت ضعيف، فإنَّ غايته معك ستكون الاستئصال. كما أنَّ الصُّلح قد يساهم وإلى حدٍّ كبير في التحفُّظ على بقايا مقدَّرات المؤمنين.

كان صلحُ الحسن (ع) قد ساهم في التحفظ على البقية الباقية من صفوة رجال علي (ع)، والذين كان وزنُهم وزنَ الأمة، ولو كان خيار الحرب هو الخيار الذي اتَّخذه الإمام الحسن (ع) لاستؤصلت هذه البقيَّة الباقية، وعندئذ لا تُرفع للإسلام راية، وهكذا صرَّح الإمام الحسن (ع) وأكَّد لهم أنَّ غايته هي التحفظ على دمائهم وبقيتهم؛ لأنّه ببقائهم يستمرُّ خطّ الرسالة، ويكون ثمَّة بصيص أملٍ لتصحيح المسار، مسار الأمة الذي أراد له بنو أمية أن ينحرف عن الخطِّ القويم، هؤلاء الرجال كانوا منتشرين في الأرض يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويُعبِّئون القوى، ويُحشِّدون الناس، ويكشفون زيف السلطة، ولم يكن بمقدور أبي محمد الحسن (ع) أن يفعل كلَّ ذلك لو استؤصلت هذه البقية الباقية، من أمثال حجر بن عديّ، وعمرو بن حمق الخزاعي، وعدي بن حاتم، وكميل بن زياد وحبيب بن مظاهر وغيرهم من الأصفياء، والأجلاء من الرجال، كميثم التمار، ورشيد الهجري، وغيرهم.

ومن الأمور التي يُساهم الصلح في تحقيقها هو كشف واقع العدو، إذ لم يكن معاوية عدوًّا سهلا، فكان لمعاوية تاريخ، وكانت ثمَّة (شرعية) هو متدثِّر بها، فمعاوية كان ثقةَ الخلفاء، فقد كان عمر بن الخطاب يعزل في كلِّ سنتين كلَّ ولاته ويعيِّن غيرهم إلَّا معاوية فلم يكن يعزله، وقد أضفى ذلك على معاوية وساماً عند المسلمين، فهو محلُّ ثقة الخليفة عمر، كما كان معاوية في مواجهة الخط الأول في الحضارة الرومانية، إذ كان خط الشام هو خط المواجهة مع الدولة البيزنطية، وقد حقَّق هو وأخوه يزيد انتصارات على الرومان، فهم الذين فتحوا الشام، وانتشر الإسلام -كما هم يقولون- بأيديهم وسيوفهم، وأصبحت الشام قلعةً حصينة تذود عن الحاضرة الإسلامية من جهة الجبهة الرومانية، إذن لم يكن معاوية صفراً في نظر شريحةٍ منالمسلمين، فكانوا يعتقدون فيه أنه من الصحابة، ومن كُتَّاب الوحي، وخال المؤمنين، وكان علاوة على كلِّ ذلك يعرف كيف يتظاهر بالنُّسك والإيمان والتقوى، والحرص على مقدَّرات الأمة، وكان يسوسهم بالكرم والسماحة والحلم، كلُّ ذلك عزَّز من موقعه، فلم يكن معاوية رجلا سهلا، هذا الرجل يحتاج الى عمرٍ طويل حتى ينكشف زيفه، وتقف الأمة على دخيلته وواقعه، فلم يكن ذلك إلَّا بواسطة الصُّلح وإنْ كان خيارا مرًّا إلا أنَّ من نتائجه، بل ومن أكبر نتائجه هو كشف هذا الزَّيف، وكشف القناع عن وجه معاوية والسلطة الأموية، فبمجرد أنْ وقع الصلح صعد معاوية المنبر ليقول للناس: "ما قاتلتكم لتصلّوا" ما كان يخفيه في قلبه خرج على فلتات لسانه، واتَّضحت بذلك للأمة حقيقته، هذا هو خال المسلمين! هذا هو كاتب الوحي! هذا هو حافظ الجبهة الإسلامية في مواجهة الرومان!، يقول: "ما قاتلتكم لتصلَّوا، ولا لتصوموا، ولا لتحجُّوا، وإنِّي لأعرف أنكم تفعلون ذلك، إنَّما قاتلتكم لأتأمَّر عليكم!"(8) ثم يقول في موردٍ آخر: "ألا أنَّ كلَّ شئٍ أعطيت الحسن بن علي تحت قدمي هاتين لا أفي به"(9)، ثم قتل الأبرار، والأخيار، والأصفياء، والعبَّاد، والنسَّاك الذين يقومون الليل، ويقرؤون القرآن، ويعلِّمون الناس أحكام الله!! أمثال حجر بن عدي وأصحابه(10)، وعمرو بن حمق الخزاعي(11) -صحابيّ جليل-، وأمثالهم كُثُر، قتلهم معاوية شرَّ قتلة، فانكشف زيفه.

كان يبعث بالسرايا الى أطراف العراق؛ ليسلب الأموال، ويقتل الناس شرَّ قتلة، ويسمل العيون، ويصلِّبهم على جذوع النخل في أطراف العراق وأطراف الحجاز، ومن قبلُ حينما دخل قائد جيشه عمرو بن العاص إلى مصر ماذا فعل؟ قتل محمد بن أبي بكر -ابن الخليفة الأول- وبأيِّ قتلة قتله جنوده؟!!! بعد أن قتلوه جاؤا بجيفة حمار -أجلَّكم الله-

ووضعوا محمد بن أبي بكر في جيفة الحمار وأحرقوه(12)، هكذا كان يفعل معاوية ورجاله كان يُمثِّل بالأخيار والأبرار، ومما ذكره المؤرخون أنَّ بسر بن أرطأ -من قادة جيشه- أغار على اليمن، وقتل حتى الأطفال! كان طفلان لعبيد الله بن العباس أخذهما وقتلهما أمام أمهما فجُنَّت(13)، ومن كل ذلك اشتهر بين الناس صنيع معاوية في المسلمين، وعرفوا حقيقة هذا الرجل، وأنَّه ليس جديراً بأن يكون خليفةً على المسلمين، هذا الرجل قد خالف نصَّ ما جاء به رسول الله (ص)، فألحق زياداً بأبي سفيان، وقد قال رسول الله (ص) -كما ذكرت عائشة، وغيرها من نساء النبي (ص)، ومن المسلمين، ومن الصحابة-: (الولد للفراش وللعاهر الحجر)(14)، وهو قد ألحق زياداً، رغم اعترافه بأنَّه إنَّما تخلَّق من ماء أبي سفيان عن فجور! ثم لم يهدأ له بال حتى نصَّب عليهم رجلاً كان مشهوراً بين المسلمين بالفسق والفجور وشرب الخمر والعبث واللعب مع القيان والقرود، وهو ابنه يزيد بن معاوية، هذا الذي لا يكاد يثوب إليه عقله حتى يُعاود شرب الخمر فيظل أكثر وقته مخموراً منتشياً، يجعله خليفةً على المسلمين؟! ولهذا ومثله عرف الناس واقع هذا الرجل، وبذلك مهَّد الحسنُ بصلحه للحسين لينهض بالثورة.

فالصلح كانت له هذه الثمار، وهذه الآثار، فليس الصلح -كما قلنا- خياراً سلبياً دائماً.

الفرق بين ظرف الأمام الحسن (ع) وظرف الإمام الحسين (ع):

بعد هذه المقدمات الأربع -والوقت يكاد أن ينتهي- نصل للحديث عن استعراض الفوارق بين ظرفي الإمام الحسن (ع) والإمام الحسين (ع)؛ لنتعرَّف بعد استعراضها على أنَّ خيار الإمام الحسن (ع) كان خيارا مناسباً تماماً لمقتضيات ظرفه، كما أنَّ خيار الحرب والمواجهة والثورة عند الإمام الحسين (ع) كان هو الخيار المناسب لمقتضيات ظرف أبي عبدالله الحسين (ع)، وهنا نشير إلى فارقٍ واحد، -وإنْ وسع الوقت تحدثنا عن فارقٍ آخر-.

الفارق الأول:

هو أنَّ الإمام الحسن (ع) كان هو الخليفة الرسميّ، وقد بايعه المسلمون قاطبة -ما عدا الشام- بعد استشهاد الإمام عليِّ بن أبي طالب (ع)، فلم يكن إماماً بنظر الشيعة فحسب، بل كان خليفةً كسائر الخلفاء، فكان هو الخليفة الرسميّ، وكان معاوية في موقع المتمرّد، هذه نقطة لتكن في البال.. والأخرى هي أنَّ جيش الإمام الحسن كان جيشاً متهرّئا مُهلهلاً، كان قوامه أربعين ألفاً كما يقولون، وكما ينقل التأريخ، ولكنَّه كان جيشاً مهلهلاً، مزيجا من تيَّارات وأحزاب، ولكلِّ حزبٍ وتيارٍ هوىً يختص به، ومعتقد ومنهج يسير في إطاره، فكان منه الخوارج وكان منه المنافقون الذين يضمرون الولاء لمعاوية، وكان منهم من سئم الحرب، لأنَّ الإمام علي (ع) كان يُحشِّدهم وكانوا يتلكَّئون، وأما مَن كان مقداماً في أيام عليٍّ (ع) فقد انتكس في أيام الحسن (ع)، لذلك كان يقول لهم الإمام الحسن(ع): "كنتم في منتدبكم إلى صفين ودينكم أمام دنياكم فأصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم"(15)، هذا هو واقع الحالة الغالبة في الجيش الذي عبَّأه الإمام الحسن، كانوا قد سئموا الحرب، وخلدوا إلى الدنيا، وعشقوا العافية، مضافاً إلى أنَّه كان منهم العيون

والجواسيس والخونة والعملاء للنظام الأموي، ولم يكونوا قلة بل كانوا من الكثرة بحيث كانت تُعرف هويَّاتهم، وكانوا يبعثون الى معاوية بكل يوميَّات الإمام الحسن، وتفاصيل أخباره حتى أنَّهم بعثوا لمعاوية سراً مبدين له استعدادهم لإغتيال الإمام الحسن أو أسره وبعثه إلى عسكره حينما يقترب من الكوفة(16)، هذا الجيش الذي يُراد له أن يواجه معاوية!! في المقابل كان جيش معاوية جيشا متماسكاً، قوياً، قوامه مائة وخمسون ألفاً، كلهم على استعداد للمواجهة والحرب. إذن فالنتيجة لو وقعت الحرب هي الهزيمة لا محالة، إنَّها نتيجة حتمية، بحسب الموازين الطبيعيَّة، وعندها يُقتل الحسن (ع)، وإذا قُتل الحسن تُوجِّه للخلافة الإسلامية صفعة جديدة، فيدخل الوهن على الأمة الإسلامية، إذ أنَّ رائدها وقائدها والخليفة الرسميّ لها قد قُتل بعد أن قتل عثمان أيضا، فلا تبقى للأمة الإسلامية هيبة، ولا تبقى للحاضرة الإسلامية منعة، والحال أنَّ أعداء المسلمين يتربَّصون بهذه الأمة الضعف والوهن؛ لتقويض دولتهم الفتية التي بذل رسول الله(ص) جهده من أجل تأسيسها، إذن لم يكن في قتل الحسن (ع) مصلحة، على أنَّه لن يكون القتل مُشرّفاً بنظر التاريخ وبنظر الناس، وستخرج هذه الحرب الخاسرة بصورةٍ مفادها أنّ الإمام الحسن (ع) كان يقاتل من أجل تثبيت خلافته، وكان يواجه معارضة لا يبعد أنَّها صاحبة حقٍّ، لأنَّهم يطالبون بالثأر لقتيلهم عثمان، وكان على الحسن (ع) أن يُسلِّمهم قتلةَ عثمان، فلن يكون قتل الحسن (ع) حينذاك مشرّفاً.

إذن في الوقت الذي يكون فيه قتل الحسن (ع) خسارة كبرى، ووهن يدخل على الإسلام والأمة الإسلامية، فإنَّه لا يكون مُشرّفا أيضاً، فلا تكون لقتله حرارة في نفوس المؤمنين، وهذا ما سيجعل من حركته ومواجهته أمراً باهتاً لا أثر له، ولا بُعد له، لأنَّهم سوف يقولون بأنّ ثمة مشكلة داخلية في الدولة الإسلامية، وقد حُسمت لصالح المعارضة! هذه هي نتيجة التحليل التأريخي للقضية، لأنَّهم لم يكونوا قد استوعبوا الأمر، ولم يكن قد انكشف لهم معاوية وواقعه السيء، فهو إنَّما انكشف بعد الصلح، وإلَّا فقبل الصلح لم يكن قد تبين لعموم الناس واقع معاوية وحقيقته، فهو بنظرهم صحابيّ وقد واجه صحابيّاً مثله، وكان أحدهما في موقع الخلافة والآخر في موقع المعارضة، ثم انتهى الأمر بهزيمة الخليفة وقُتل، وكان يريد أن يُثبِّت دعائم خلافته فلم يُوفَّق، وهكذا ينتهي الأمر فلا يكون لقتله أثر معنويٌ في النفوس أصلاً بعد كلِّ هذا التشويش.

ثم إنّه يمكن أن لا يُقتل الحسن (ع)، يمكن أن يُؤسر وهي الطامَّةُ الكبرى، إذا أُسر الإمام الحسن (ع) وهو خليفةُ المسلمين، وأصبح أسيراً في يد معاوية فحينئذٍ سيُعمل معاوية مكره المعهود وسيعفو عن الإمام الحسن (ع) فيظهر في مظهر الممتن والمتفضِّل فيكون الوهن على الإسلام والخلافة أشد وهو كذلك على الإمام سبط رسول الله (ص) فلا هو استُشهد، ولا هو انتصر، ودخل الوهن وانتهت الخلافة.

فالخلافة الظاهرية منتهية على كلا التقديرين، ولكن أن تنتهي بصلحٍ يفرض الإمام الحسن فيه شروطه، ويمهّد لثورة قوية تُزلزل أركان السلطة الأموية خيرٌ من أن يُهزم ويُقتل، أو يُؤسر فتكون النتيجة هي التي ذكرناها.

أما ما كان عليه ظرف الإمام الحسين (ع) فالأمر لم يكن كذلك، كان الحسين(ع) في موقع المعارضة، وكان يزيد هو في موقع الخلافة الرسميّ، كان الحسين في نهضته يحمل شعار الإصلاح للأمة بعد أن اتَّضح للأمة ما نتج من انحرافٍ خطير عن خط الرسالة على يد السلطة الأموية، وبعد أن كانوا عارفين بواقع يزيد بن معاوية. إذن فحركة الإمام الحسين(ع) هي حركة رمزية لها آثار معنوية واسعة، فقد كان الحسين صحابياً، جليلاً، عالماً، عارفاً، وله الحق بمقتضى الصُلح، وهو صاحب شعار الإصلاح، والأمر بالمعروف، ولحركته ما يُبرِّرها من كلام رسول الله (ص): أما بعد فقد علمتم أن رسول الله (ص) قد قال في حياته: "من رأى سلطاناً جائراً مستحلَّاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله (ص)، يعمل في عباد الله بالاثم والعدوان ثم لم يُغيِّر بقولٍ ولا فعل، كان حقيقاً على الله أن يُدخله مدخله"(17) إذن كان هذا هو الشعار الذي رفعه، وكان في موقع المعارضة، وكان قد انكشف زيف النظام الأموي، إضافةً إلى كلِّ ذلك فالحسين(ع) كان يواجه خليفةً مستهتراً، ولم يكن خليفةً ماكراً متظاهراً بالنُّسك كما هو معاوية، كان يزيد جسوراً لا يعبأ بشيء، ويتجاهر بالفسق، وبشرب الخمر، ويلهو بالقمار والجواري، وضرب الدفوف، واللعب مع القرود، هذا لا يُنتظر منه أن يكون حكيماً، ولا يُنتظر منه أن يكون بصيراً بكيفية معالجة هذا الحدث الخطير، إذن فقد كانت نهضة الإمام الحسين (ع) تُمثِّل بنظر المسلمين تصحيحاً لمسار الحركة الإسلامية، أما حرب الإمام الحسن (ع) لو وقعت فستُفهم على أنَّها إصلاح لمشكلة داخلية باعتباره كان في موقع الخلافة الرسمية.

الفارق الثاني:

هو إنَّ الخيار النافع في مواجهة الإمام الحسن (ع) لمعاوية هو الانتصار وحسب، وأما الهزيمة أو القتل فكانت نتيجته مضرَّة بالمصلحة الإسلامية -كما بيَّنا-، فإذا قُتل أو هُزم الحسن (ع) فإنَّ النتيجة هي دخول الوهن على الحاضرة الإسلامية، أما إذا قُتل الحسين (ع) فإنَّ أثر ذلك يصبُّ في صالح الأمة، وذلك لأنَّ قتله وهو في موقع التصحيح سوف يستنهض من عزم الأمة إذ أنَّ شهادته على يد الطغمة الأموية وهو سبط الرسول (ص) سوف يزيدها بصيرةً بالواقع الفاسد الذي تمخَّض عن استيلاء هذه الطغمة على مقدَّرات هذه الأمة، وبذلك يتحوَّل الحسين(ع) إلى رمزٍ للثوار والمناضلين، وتُصبح نهضته المباركة منهجاً ومناراً يستضيء به المجاهدون والأحرار والأبرار، والذين يريدون أن يسيروا في خط الله عز وجل.

إذن كلا النتيجتين نفع للأمة، إنْ انتصر الحسين (ع) فالأمر واضح، فإنَّ الأمة ستؤول إلى خير، وإنْ لم ينتصر وقُتل فإنَّ قتله سوف يُمهِّد لانتقاض النظام الأموي، أما الحسن (ع) فإنَّ انتصاره كان مستحيلاً، وفي هزيمته ضرر كبير، فليس ثمَّة خيار نافع سوى خيار الصلح. وأما الحسين (ع) فإن قُتِل أو انتصر فإنَّ ذلك يصبُّ في صالح الأمة، هذا هو أحد الفوارق، ولأنَّ الوقت قد انتهى وأطلنا عليكم فنكتفي بهذا المقدار.

والحمد لله رب العالمين

الشيخ محمد صنقور

1- سورة الحج / 39.

2- نهج البلاغة -خطب الإمام علي (ع)- ج 1 ص 31.

3- شرح نهج البلاغة -ابن أبي الحديد- ج 1 ص 269.

4- بحار الأنوار -العلامة المجلسي- ج 29 ص 500.

5- الأخبار الطوال -الدينوري- ص 222.

6- الامامة والسياسة -ابن قتيبة الدينوري، تحقيق الزيني- ج 1 ص 142، الأخبار الطوال -الدينوري- ص 221.

7- بحار الأنوار -العلامة المجلسي- ج 29 ص 500.

8- المصنف لابن أبي شيبة ج 7/ 251، كشف الغمة للاربلي ج2/ 164.

9- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج16/ 46، مقاتل الطالبيين لأبي الفرج الأصفهاني: 45.

10- الكامل لابن الأثير ج3/ 485، تاريخ ابن خلدون ج3/ 13.

11- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج15/ 177.

12- تاريخ دمشق لابن عساكر ج49/ 427، تاريخ اليعقوبي ج2/ 194، تاريخ الطبري ج4/ 79.

13- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج1/ 340، الإستيعاب لابن عبدالله ج1/ 158.

14- صحيح البخاري ج3/ 5، 39، صحيح مسلم ج4/ 171، السنن الكبرى للبيهقي ج7/ 403، الاستيعاب لابن عبدالله ج2/ 526.

15- تاريخ الإسلام للذهبي ج4/ 6، الكامل في التاريخ ج3/ 406، أسد الغابة لابن الأثير ج2/ 13.

16- الإرشاد للشيخ المفيد ج2 /12، كشف الغمة للأربلي ج2/ 163، الفصول المهمة لابن الصباغ ج2/ 723.

17- بحار الأنوار -العلامة المجلسي- ج 44 ص 382.

◆◆◆◆◆ ◆◆◆◆◆

[تواصل الخطباء اضغط هنا]